وجاهلهم بعالمهم على اصلاح البلاد وترقية الامة وقد سرنا ما نقلته الجرائد من عهد قريب من تكرم مولانا أمير المؤمنين وكبير سلاطين المسلمين بهدايا نفيسة من الخيول الجياد وغيرها ارسلها الى مولاي عبد العزيز سلطان مراكش فعسى ان تكون هذه الهدية فاتحة الالطاف و بداية الاسعاف

القوة والقانون (*)

﴿من مقالات الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده الشهير﴾

قبل الكلام على خصائص هذين الركنين لهيئة الوجود الانساني نريد أن نبين حقيقة كل منهما ليكون القارئ على علم بما يلقى اليه بعد فلا يخطئ الغرض ولا يجاور المرض، ولا تلحقه شبهة توقعه في ظلام الحيرة وغيهب التردد — أما القوة فلا نعني بها الا ما يستعمل لجلب الملائم ورفع المكروه سواء كان من شخص واحد أو جماعة ما لفة أو شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ورفع المصادم هي القوة البدنية مجردة عن سواها كما تراه في السباع الضارية والحيوانات الكاسرة أو هي منضمة الى السيوف القاطعة والآلات المحرقة وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والصيال

أما القانون فهو الناموس الحق الذي ترجع اليه الامم في معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية وهيئاتها النفسانية أعم من أن يكون متعلقا بروابط الممالك وعلاقتها أو منوطا بالسياسة الداخلية، كالادارة المدنية والتدابير المنزلية، أو باحثا عن الاخلاق الفاضلة وما ينبغي أن يتحلى به الانسان منها، وما يجب أن يبتعد عنه من اضدادها، وسواء كان في امة واحدة أو أمم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن اما القوة فكانت شرعة الأمم الغابرة والشعوب السالفة وقت ان كان الانسان جبلي الطبع لا يمتاز عن غيره من

(*) افتتح بها العدد ٨٨ المؤرخ في ١٩ شوال سنة ١٣١٦ الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٩

أنواع الحيوانات الا بالفصل المميز أعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف وشعار التمدن فكانت له الحاكم الفيصل يرجع اليها في تحصيل غرضه ونوال مطلوبه وباختلافها وتفاوتها اشتدادا وضعفا وتقدما وتقهقرا كانت تختلف الأمم وتتفاوت في الشرف والضعة والسطوة والفقر والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مهما كانت طرائقها فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجراءة وكثرة السلب والنهب والبتك والفتك وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل في هذه الصفات تعرف بالمجد الاثيل والشرف الباذخ والمكانة العالية فيدين لها مجاوروها ويخضع لسطوتها كل أمة قرع اسماعها ما هي عليه من علو المنزلة وشدة الانفة وقوة الشمم وتساق اليها الهدايا من نجوم الاقطار وشاسع البلدان وتأتيها الغنائم أفواجا يقتادها رجالها الابطال من ساحات الصدام والنزال ولم تزل الازمان الغابرة محكومة بسلطان القوة تقلب الامم على جمر الخوف والاضطراب وتضرب بصولجانها جراثيم القلوب الضعيفة فتلقي بها في مهاوي الذل والهوان حتى خضعت لها الامم ودانت لها الشعوب وصارت هي الديان المسيطر على كل شيء فاذا تمت لقوم تبعتها السلطة التامة والحكم المطلق فيتسلطون بقدر مكنتهم على ما شاء الله من الشعوب والقبائل ويتخيرون واحدا منهم سلطانا أو ملكا قد امتاز بالتهور والجراءة وجلالة المنظر والنضارة يملكونه زمام الحكم والسلطة ثم يتخذون من عشائرهم رجالا يعدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة والنصرة على العدو والعدة لفتح الممالك والامصار ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سلطانهم بالرهبة والقساوة لئلا يتخلصوا من ربقتهم فيذعنون لملكهم قهرا لا طوعا وينظرونه مقتا لاحبا ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون وذلك دون مراعاة طرق عادلة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء وذللت الشعوب وانتهكت حرمات الامم وسجنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد ،

هذا ما ولدته القوة في تلك الاعصار الخالية التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة مسربلة بجلابيب الغباوة، مغمورة في بحار الوحشية، وما أظن تلك الشريعة المشار اليها كانت خاصة بأمة من الامم أو صنف من أصناف البشر، بل كانت عامة بين أبناء

الانسان على اختلاف أجناسه وتباين مواطنه ، فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة ، وإمارات متباينة ، تجول فيها يد القوة ، ويحكمها مجرد الرهبة ، ويطويها الخوف وينشرها الفزع ، ويشملها الاضطراب والاختلال ، وتتبادلها أيادي السلب ، يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ويصبح أقوياؤها غير مطمئنين على حياتهم ، فانبثت في قلوب هؤلاء الأوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعصي القوة علة الضعف ، ودبت فيها سخائم الحقد ، فاختلفت الاغراض وتباينت المشارب وتفرقت القلوب وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى أنواع لا يجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق وتبدلت فطرته السلمية الى أخلاق لا مناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف ،

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب وارتسمت صورها في مخيلاتهم ، وانسحبت معانيها الى ذاكراتهم ، وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم ، قائمة نصب أعينهم ، حتى توهموها مقلب القلوب والأحوال ، حافظ القوى والاكوان ، اليها مرجع الحوادث ، وعليها تدبير النوازل والكوارث ، فاحتسبوها المدبر في المكونات بأجمعها وصوروا تماثيل على صور مختلفة ، وأنواع متباينة ، تشير ظواهرها الى القوة وتؤدي هيآتها معاني العظمة والسطوة ، ووضعوها في أماكن عبادتهم ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ، ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان ، وهذه أصنام العرب والصين والعجم وآثار قدماء المصريين ، وآلهة اليونانيين المصنوعة على أشكال الحيوانات العادية ، والملوك العاتية ، يشرح التاريخ أحوالها فلا داعي إلى الاسهاب في تفاصيل شؤونها ، ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي بامعان وتبصر ظهر له ان القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلمية و بددتها وأحدثت به من القبائح ما أحدثت ولولا أن القانون كسر سورتها وذلل صعوبتها لما أشرق نور الحق على صفحات الوجود ولا تمتع الانسان في الازمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة فالحق للقانون لا للقوة

و بينما الانسان تائه في أغوار الاستعباد ، في هاتيك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد ، والجور والعيث والعار ، ليس له حق يصان ، ولا عرض الا ويهتك ويهان ، اذ أشرقت

عليه قرائح الذين جادت بهم مراحم الفضل ، وعرفوا بمناهج الخير ، فأبصر من طلائع أفكارهم ما يهديه الى سبل الرشاد ، ويوقظ فكرته الى التماس الصواب من أبواب السداد ، فعلم أن القوة هي منحة جليلة ، ونعمة كبيرة ، يستعين بها على حاجاته الضرورية ، ولوازم معيشته المرضية ، قد خزنها الله تعالى بالاتحاد والائتلاف حتى اذا عجز الفرد الواحد عن مالاطاقة له عليه من نفائس المطالب ، وجلائل الرغائب ، استعان بعشيرته ثم بقبيلته ثم بأمته التي يجمعها دين أو ملك ثم بجميع أفراد نوعه ، وان القوة اذا لم تكن على قانون لاتعداه ، وخط لا تتخطاه ، بأن استعملت على أي وجه ، وفي أي زمان أو مكان ، لا ينال ثمرتها المحبوبة ، وغايتها المطلوبة ، فأسف على ما كان ، ونزع من رقدة الغفلة يحاول لها النظام المبرعنه بالقانون ، فكان نورا يهتدي به وقائدا رشيدا يسلك بالانسان الى ما أهله له من الكرامة والنعيم ، فتتبع سبيله المهتدون ، ومال عن سننه الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالانقياد لاحكام القانون فانه حفظه باطنا وظاهرا ، وتمسك به غائبا وحاضرا ، حتى صار ركنا من لوازم حياته ، وعدة لمقاصده وغاياته ، وملهج لسانه في بكره وعشياته ، الى ان عرف به واجباته الحقوقية ، وفرائض معيشته العمومية والخصوصية ، وأمن به من مصائب الظلم ونوازله ، والجور وغوائله ، واطمأن به على نفسه وعرضه وماله ، فسكن قلبه بعد اضطراب ، وقرت عينه برياض الامن والامان ، وتولد فيه أمل حمله على ادمان العمل فأعمل فكرته الخامدة ، وأجرى حركته الراكدة ، ولا زال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ، ويقتنص بحبالة الاستكشاف كل فائدة ، ويستعمل قواه في حل المبهمات ويستطلع ببصيرته ما خفي من مجهول الكائنات ، الى ان حداه العلم الى معرض الاختراع والابداع ، فطار على جناح البخار بدل الشراع ، واستخدم النضار ، لقضاء الاوطار ، واستعمل البرق على بعد الديار ، رسول الاخبار ، وجعل المدافع والقنابل ليبيد بها مضاديه ومعانديه ، وانغمس في النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا ، الى غير ذلك مما اتيح له من محاسن الحضارة ، ولطائف الرفاهة والنضارة ، ولا زال يضرب في نجوم البلاد ويذلل بقوة عزمه اخلاق العباد الى ان أصبحت البسيطة في قبضة زمامه ولا غرو فان فائدة الاتحاد والائتلاف

وباعثه الوفاق لا الاختلاف وهو الآن كما بدأ يحافظ على القانون بانسان مقله ، ويصرف في حراسته ما يدخل تحت قوته ، فانه ملاك سعده ، وأساس مجده ، ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفحا ، وطوى عنه كشحا ، فرموه على رذالة أخلاقه ، وبساطة أفكاره ، يصبح مضغة تحت اضراس الظلم ، ويمسى كرة لصولجان البغي ، فليحي صاحب القانون على بساط النعمة الهني

فيا أيها الذين ينحرفون عن القوانين ويعدلون عن طرق النظامات لغرور وقعي ارفقوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ورفعوا شأن الحقوق فأصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهضوا لمجاراتهم في الصدق ان كنتم تعقلون واياكم والتمادي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من السلطة فللأيام تقلب وتقلب لكن صراط الحق واحد وسالكه لا يضل ان عثر يوما استقام أعواما اما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطرة كثيرة الغوائل سالكها معارض لمدبر العالم سبحانه وتعالى في أحكامه فانه عز شأنه قد أقام الكون بنظام المحكمة ورتب لكل شيء حدودا هي سور بقائه وسياج دوامه فان خرج عنه انحدر الى مهاوي العدم والفناء ومن تأمل الكون الاعلى وما فيه من الكواكب والشموس والاقمار ثم نظر الى العالم الاسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان يشهد في الجميع لكل نوع منها قانونا خاصاً في سير وجوده تقوم البراهين القاطعة على انه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الالهي بالعدم والانقلاب وانه بباهر حكمته قد جعل للهيئة الانسانية حدودا عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في معيشته الخاصة نفسه أو معاملته مع غيره وقد اودعها العلماء والحكماء بطون كتب التهذيب والتربية البشرية ، بعد ان نطقت بها الشرائع الالهية ، وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة ، عن الأمم الماضية والمشاهدة الحالية في الأوقات الحاضرة ، ان من تخطى حدود هذه الحقائق رماه القهر الالهي بسهم لا يخطىء مرماه فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الامم وان القوة لا تأتي بثمرتها الحقيقية الى اذا عضدت باتباع

الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه

فكيف يصح لذى شوكة أو صاحب سلطة أن يغتر بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته ، أو يعجب بصولته ، ويدع الامور لارادته ومشيئته، ويزدري بالقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت امرته، فيفعل ما تسول له نفسه ، ويأتي كل مايسوقه اليه حسه ، فيسري الاهمال في طبقات رجاله، ويجارون حاكمهم في عوائده واخلاقه، وتصير الاموال لديهم مباحة، والحقوق مبتذلة، والاعراض منتهكة، ووسائل الربط والضبط معطلة ، وعقد المواثيق والعهود محللة ، فيكثر فيما وليه غوائل الخسران، وتنمو به جوائح البهتان، حتى تصير افراد المحكومين اخلاطا رعاعا لافرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات، والتمكن من وسائل اللذات، مع توافق في الفطرة، وتشابه في الغريزة، ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بجم غفير من الغرماء يتجاذبونه بايد طالما نقدته من خزائنها ما فلته نزوا يسيرا في جانب اسرافه وتبذيره وهو على كاهل الاهالي حمل ثقيل العبء لا تقدر أن تقله وتمسي عارية البلاد تنعي محاسن صبحتها أو بابها طوامس المعالم مظلمة الاطراف ، ليس فيها سوى نعاب البوم وهمس الهوام ، وحينئذ لا تسل عن العاقبة فانها أسر ونهب وبئس المآل

ذلك مايولده الغرور بالقوة، والاعجاب بالسطوة، وترك القانون الذي عليه سعادة العباد، وخصب البلاد، فاذا أرادت تلك الامة التي تصرف فيها ذوو البغي والغرور على خلاف القانون ان تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول فلا بد لها من اعادة شأن القانون ، فتشيد منه ماهدمته يد الغرور، و بددته سطوة الفجور، وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه، ومتابعة رشده وهداه، ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض وما كان اغناها عن الاصلاح بعد الافساد والتعمير بعد التخريب ولكنها باعت القانون بثمن بخس فكان جزاؤها أن تشتريه بنفوسها العزيزة ودمائها الشريفة حيث عرفت ما هي القوة وما هو القانون ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد أن شاء الله تعالى

(المنار) ان مباحث هذه المقالة من « علم الاجتماع » الذي يستمد من علم

التاريخ وقد جرى فيها مولانا الاستاذ على نهج السداد بجعل الكلام فيها عاما في القوانين سواء كانت وضعية أم سماوية لان خلط الفنون الفلسفية وغيرها بالدين الذي جرى عليه المسلمون أولاً أضر بهذه الفنون كما أضر بالدين كما يعلم ذلك من النظر الدقيق في التاريخ ولا شك ان النسبة بين سلطة القوة وسلطة القانون وان كان وضعيا هو عين ما ذكره الاستاذ ، وأما كون الحكم بالقانون الوضعي غير مرضي لله تعالى ولا مؤد لسعادة الآخرة فهو ليس من مباحث هذا الفن واعتقاد المسلمين فيه معلوم وقد ألمع اليه الاستاذ وأشار إلى تعظيم شأن الشريعة السماوية

حجة ناهضة وشبهة داحضة

من عذيري من قوم لا يكادون يفقهون حديثا ، يرون القبيح حسنا ويحسبون طيب خبيثا ، يهيجون على من قال الحق ، ويحتمون على من نطق بالصدق ، وأما الاعمال فقيمتها عندهم بحسب تسميتها ، لا بحسب حقيقتها ، فاذا سموا الرذيلة فضيلة والمنكر معروفا والفجور برا والفسق طاعة والكفر إيمانا فتعظيم هذه الاشياء واعتبارها يكونان عندهم بمقدار ما تستحق مفهومات هذه الاسماء في الاصل كما ان الجاهل منهم يفرح ويسر إذا سمي عالما أو أطلق عليه لفظ الأستاذ ونحوه والغر الاهبل يتبجح بلقب بيك أو باشا والدعي يفتخر بكلمة السيد الشريف ، وهكذا قد جارت علينا مملكة الالفاظ حتى جعلت بيننا وبين الحقائق سدا منيعا لا ندري متى يدك أو يخرق ،

انحرف المنتسبون لطريق التصوف عن هدي سلفهم الصالح حتى صاروا معهم على طرفي نقيض ومع ذلك ترى العامة تخضع لهم لان العلماء يقرونهم على ما هم فيه ويحترمونهم على مقدار مظاهرهم الدنيوية وقد كان العلماء من قبل واقفين بالمرصاد لاهل التصوف الصادقين حتى اذا آنسوا منهم انحرافا بقول أو عمل أقاموا عليهم النكير وسلطوا عليهم الحكام يجلدون ويسجنون بل يصلبون ويسلخون فأين صوفيتنا من أولئك الصوفية وعلماؤنا من أولئك العلماء ؟ ؟ الحمد لله قد بقي عندنا من